



الجديدة، لكن ضمن إطار الاستنساخ الفكري الذي يحمل هيئة أكاديمية كلّجنة تعديل المناهج في الجامعة اللبنانية في البقاء على إجرائها العجيب، بإدراج الشيرازي ضمن المتكلمين الشيعة، واعتباره وهو المعاصر، لديكارت، واحداً من فلاسفة القرن الوسطى، وفلسفة الدين. ويصرّح هذا الموقف عن جهل مطبق بمكانة الحكيم، ونظامه الفلسفى الرائد والمجدد، والحديث، ولنا مع ذلك مجال بحث آخر، لكن، وبعد هذا العرض للعلاقة مع الشيرازي، علاقة المثاقفة هذه، هل أدت عناصرها إلى معرفة حقيقة به؟ هل يمكنني أن أكرر صرخة أدونيس حيال الأندلس وأقول كأني أعرف الشيرازي مستخدماً هذا الخطيط الرفيع الذي يفصل المعرفة عن عدمها، أو المعرفة المتتجدة، في حركة تفاعل الفكر مع دراسته. إن هذه المنطقة الرمادية، بين الأبيض والأسود، هذه الأوقات التي فيها يتكون لون الفجر، في البرزخ المتصل بين الليل والنهار، هي القاطرة التي تحمل المعرفة من الحاضر إلى المستقبل، حيث كأني أعرف الشيرازي، تعني أني أعرفه، وأنني سأعرفه من جديد، ومن خلال معرفة الآخرين به، والتفاعل بين مريدي مدرسته وتطور هذه المدرسة في إنتاجاتها اللاحقة، وعلاقتها مع أصولها، معرفة مركبة، متصلة لا انقطاع ولا قطيعة أستمولوجية فيها تقوم على ربط الحلقات بسلسلة الحكماء، وذلك ما يربط الفلسفه بتاريخها و يجعل من هذا التاريخ جزءاً أساسياً من الفلسفه دعوة لحوار فلسفى مبدع وخلق تكون فيه المعرفة فلا تجعلها مستحيلة، ولا ندعى أنه قد بلغت كمالاتها.



الملف

كأني أعرف ملاً صدراً^(*)

د. طراد حمادة

المراجحة تتكون مع الوقت علاقة صحية غير محسوبة بين الباحث وموضوع البحث، وتتطور هذه العلاقة لتقوى وتشتد كلما تقدمت درجات المعرفة المتكونة من الدراسة المتواصلة. وحين يحاول الباحث الرجوع إلى البدايات لتعيين الأهداف التي من أجلها أقدم على اختيار موضوعه، يجد نفسه في موقف من يتذكر كما يبحث رجل عن سيرة سابقة، وحتى لو سبق له وكتب مذكراته أو رسم خطة عمله وفصل أبوابها، فسوف يجد نفسه أنه قد عاد إليها مرات، وعدّل شيئاً من هنا وبدل شيئاً من هناك.

وعليه، تشعبت الطريق التي قادتني إلى دراسة صدر الدين الشيرازي بالمعنى الذي قصده أعلاه. كنت قد درست الأدب العربي ثم الفلسفه في كلية الآداب - الجامعة اللبنانيه وبعدها التحقت بكلية التربية لتحضير شهادة الكفاءة للتعليم الثانوي في الفلسفه (ماجيستير) ولم أكن سمعت بـ ملاً صدراً أو صدر المتألهين، وهو الاسم الذي اشتهر به الشيرازي أو ناداه به تلامذته، ولا بفلسفته المتعالية، ولم يحدثي عنه أستاذ أو صديق. كان الرجل مجھولاً في برامج الفلسفه لجامعتنا ولست أذكر أني وقعت على كتاب له برغم شغفي بالكتب والبحث عنها.

المعرفة الأولى باسم صدرا، حصلت لي في وصف الدبلوم، وذلك أثناء الإعداد لرسالة ماجستير عن الفلسفه السياسية للحركة المهدية في السودان، وتقدمت بأبحاث حول دعوه الجامعة الإسلامية عند جمال الدين الأفغاني، ومقارنة حول حركة العقل في التاريخ بين الفيلسوف الألماني هيجل والشهيد محمد باقر الصدر، وكان هذا البحث إطلالة أولى على ملاً صدرا، من حيث معرفتي بآرائه من خلال كتاب «فلسفتنا» للشهيد الصدر، ثم عمدت

(*) تقدم د. طراد حمادة بatriothesis دكتوراه عن فلسفة ملاً صدرا، في جامعة السوربون - باريس الأولى، وقد اختار مساهمته في هذا الملف رواية قصة هذه الأطروحة، وتجربته في التعرف على ملاً صدرا ودراسة حكمته المتعالية.

المكتوبة فيها، حتى ذهب هو نفسه للقول بأن لا سلف له يمهد الطريق في هذه الدراسة^(١) (Pour laquelle nous n'avions guère de devanciers qui nous aient fraye la voie).

ويتبع عن ذلك التمييز أن مفهوم الفلسفة الإسلامية لا يمكن أن يكون وفقاً على التبيانية schéma التقليدية التي طالما تابعتها موجزات التاريخ والفلسفة فجعلتها لا تمسك إلا على بعض الأسماء الكبيرة، ويتبع أيضاً أن الفلسفة الإسلامية ستبدو كعمل مفكرين، ينتمون إلى جماعة يخصها التعبير القرآني باسم «أهل الكتاب»، لتصبح المهمة الأولى والأخيرة لهم المعنى الحقيقي للكتاب، حيث الموقف الفلسفى المعاش في هذا الأساس هو موقف تفسيري يفتح فيه المعنى الحقيقى للمؤمن الأمر الذى يساعد على اكتشاف ومعرفة الحقيقة.

قادتني قراءة كوربان إلى محاولة تقويم جديدة للفلسفة الإسلامية وتاريخها في مدرستيها الكبيرتين: المشائية والإشراقية، ومرحلتيها المميزتين ما قبل ابن رشد وما بعده، عليه، توقفت عند فلسفة شيخ الإشراق السهروردي الذي قادني إلى الشيرازي كما فعل من قبل بكوربان. وثبت اختياري على دراسة فلسفة صدر الدين الشيرازي كمجدد للفلسفة الإسلامية في مرحلتها الثانية، وموحد بين مدرستي المشاء والإشراق.

لم يكن الانتقال من السهروردي إلى ملاً صدرأ عملياً تفرضها حركة الدراسة التاريخية للحكيمين، بقدر ما كانت تبدلاً يرتبط بغایة مرتقبة بدورها بطبيعة فلسفة كل من شيخ الإشراق وصدر المتألهين، وإذا كانت الدراسات في الحوزات العلمية قد غلبت آراء صدرأ على آراء السهروردي، فإن هذه الغلبة تعود أصلًا إلى علاقة فلسفة ملاً صدرأ بالتشيّع. إنه الفيلسوف الرسمي للشيعة الإمامية إذا صحَّ استخدام هذا التعبير، بل لعله يوجد قرار غير معنٍ يشبه ذلك القرار في المسيحية الوسيطة حول فلسفة توما الإكوني. بالنسبة لي، الأمر لا يخرج عن هذا النطاق أيضًا. لقد درست شيخ الإشراق، وحاولت نظم كتابه هيأكل النور شعراً، ولم تتجه هذه المهمة المبهمة، ثم وجدت نفسي خارج دائرة وعدها الثقافي، لأن دراسة فلسفة التشيع تحصيل رؤية فلسفية متينة مرتقبة بالإمام المهدى(ع) كوعي لفلسفة النبوة والولاية لا يتتحقق من خلال السهروردي وإنما من خلال الملاً صدرأ. إن الشهيد الصدر والبروفسور كوربان H.Corbin كانا الساعدين الإنسانيين اللذين حملاني

(١) انظر: Henry. Corbin: Historie de la philosophie islamique. Et Christain Jambet: La logique des orienteaux seuil: 1983. p216.

للبحث عن كتاب صدرا «الأسفار الأربع» واقتنيته، لكن هذه العلاقة، بقيت في عالم القوة مع استعداد للخروج إلى الفعل عبر اتفاق مع الذات للدراسة في قم أو باريس، تتمحور حول (فكرة المهدى) تكونت من خلال مناقشة مسألة (المهدوية) في مبحث الحركة المهدية في السودان، أدركت وقتها أنها تتمحور بخلاف المنشأ السياسي حول مفهوم الولاية الميتافيزيقي، المفهوم المحور في الفلسفة النبوية، ومنها فلسفة ملاً صدرأ. قلت: كان اتفاقاً سرياً مع الذات وكان مع الآخر ينتظر ظروفه الموضوعية للتحقق.

في البداية كتبت أشعر ميلاً إلى فلسفة الإمام الغزالى (١١١ - ٥٠٥ هـ) أعجبني في «المنقد من الضلال»، وأخذتني براعة في الكشف عن «تهافت الفلسفه»، وكيف انصرف إلى الفلسفة الحقة في عزلته ورحلاته في طلب المعرفة، ثم تحول هذا الميل إلى ابن رشد (١٩٨ - ٥٩٥ هـ) في مسعاه للدفاع عن الفلسفه، عن طريق «التوفيق بين الحكمة والشريعة»، وحضرت رسالة الكفاءة عن موضوعات «فصل المقال»^(١)، وما انتهيت من وضع هذه الرسالة حتى شعرت أن الفلسفه تستحق الرحيل لطلبها، فعزمت أن أذهب إلى باريس طلباً للعلم، وفي جامعة السوربون التي قيل إن في أصل نشأتها كان تدرّيس الفلسفه ونصرتها. وكانت تلك الرحلة أول الطريق في معرفة الشيرازي. حصل ذلك بواسطة كتاب «تاريخ الفلسفه الإسلامية»^(٢) للبروفيسور هنري كوربان، الذي وجدته ذات نظرة جديدة لتاريخ الفلسفه مختلفة عن كتب التاريخ لها باللغة العربية، من مدرسة مصطفى عبد الرزاق إلى ماجد فخرى، وما تحمله من تنوع بين اتجاهات دراسية لجامعة القاهرة وجامعة الأزهر والجامعات في لبنان التي تمثل تيارات عربية وفرنسية وأنغلو سكسونية في مفهوم التأريخ للفلسفة من الجامعة اللبنانيه إلى الجامعات الخاصة العربية واليسوعية والأميركية، لكن نظرة كوربان كانت جديدة ومميزة لتاريخ الفلسفه الإسلامية ومراحلها، وكذلك عناصرها المكونة، خاصة ما تعلق منها بتلك الفترة المتدة من القرن السادس للهجرة إلى القرن الحادى عشر، أي فترة ما بعد ابن رشد وحتى عصر الشيرازي، وتميز كوربان بين الفلسفه الإسلامية وتلك المسماة بالفلسفه العربية، نسبة إلى اللغة

(١) ابن رشد. كتاب فصل المقال وتقدير بين الشريعة والحكمة من الاتصال، حققه وقدّم له د. ألبير نصري نادر. دار المشرق - بيروت.

(٢) Henry. Corbin: Histoire de la philosophie islamique. Gallimard. Paris. 1989.

وأن الرجل قد أهملته الدراسات وجفافه المؤرخون. جاء في ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية أنه (أحد الكبار المجهولين في تاريخ العقل الانساني وقد وجد في غمرة الظروف التي أحاطت بحياته العلمية المتواضعة البائسة، الوقت والقوة، لإقامة صرح مذهبة في العالم، ولتنظيم وبسط جملة العلوم المعروفة في زمانه، وذلك وفقاً لوجهات نظر جديدة، واستطاع أن يحل على وجه فيه طرافه وابتكر المشكلات الكبرى التي أسلمتها الفلسفة القديمة لعصره^(١).

لماذا هذا التجاهل لفيليسوف بهذه القيمة الروحية العالية؟

لا شك أن ثمة أسباباً عديدة وراء ذلك منها:

١ - إن العقيدة التي كانت سائدة لدى مؤرخي الفلسفة والمعنيين بها، أن مسيرة الفكر الفلسفي في الإسلام، توقفت بوفاة أبي الوليد ابن رشد، اتسمت بكثرة الشرح ودراسة المصطلحات وبميافيزيقا الصوفية^(٢) وعليه فقد نالت هذه الفترة ما تستحقه من الدراسة فيما أهمل ما بعدها إلاً ما ندر..

٢ - اعتبار الفيلسوف الشيرازي استمرار لمدرسة ابن سينا (ت ٣٧٠م). عند بعضهم ولتطورات هذه المدرسة بعد الشيخ الرئيس، وأخرون اعتبروه استمراً لفلسفة الإشراق التي صاغها السهروردي (ت ١٩١م)، ولذلك كان الأجدى الإلتفاف على فلسفة الأصيل بدل الوكيل، ودراسة ابن سينا والسهروردي تؤدي الغاية، وتغنى أصحابها عن دراسة فلسفة الشيرازي.

٣ - إعلان صدر الدين الشيرازي تشيعه بشكل صريح، فيما لم يفصح غيره من فلاسفة

Philosophie iranienne et philosophie comparee, Academie imperiale iranienne de philosophie, Teheran, 1977.

Sayyed Haydar Amoli: La philosophie shi'ite, Le texte des textes (nas annousous), commentaire de fusus al hikam d'Ibn Arabi, Publie avec une double introduction et un quintuple index par Henry Corbin et Osman Yahia, Institut francais de recherches en Iran, Paris, Edition TUS, Teheran, 1988.

(١) دائرة المعارف الإسلامية - دار المعرفة - بيروت ١٩٣٣

(٢) يرى عدد كبير من الباحثين أن الميافيزيقيا الصوفية مبنية أساساً على دراسة الموجود وتحققه في المعنى الكامل لشهادة لا إله إلا الله.

Annoté: Christain Bonard. Le souphisme maisonneuve larose. institut du monde arabe. Paris, 1991, p.21-22.

إلى فلسفة صدرا، لكن دعوة الداخل أو سواعد النفس والذات ما حملني إليه بتأييدات بركة معرفة الإمام باعتباره الهدف الأساس من اشتغال الفلسفى.

وفي سياق ذلك، وجدت جملة هامة تستلزم حضور الأوجبة عليها وهي من نوع: موقع الفلسفة الإسلامية من الفلسفة بشكل عام، وعلاقتها بالفلسفة اليونانية بشكل خاص، ومن هم الفلاسفة الحقيقيون في تاريخ الفكر الإسلامي؟ وما هو تعريف الفلسفة وصاحبها عندنا؟ وقد ناقشت هذه الأسئلة في رسالة ماجستير عن الفلسفة والفلسفة الإسلامية La Philosophie et la philosophie islamique، قدمت لدراسة الشيرازي، لأنه إذا كانت الفلسفة المشائية الإسلامية تعاني من تهمة الخروج عن دائرة التفاسير، فكيف بالإرائية والتتصوف والعرفان، وما أدراك ما هذه المسميات التي تشكل كل واحدة منها مدرسة بحالها في عالم الفكر. كانت مهمة هذا البحث أن تثبت عندي أن الشيرازي فيليسوف بالمعنى العام والمعنى الخاص للكلمة، لأنني ما أردت الاشتغال بغير الفلسفة وموضوعاتها البحثية.

من آثار قراءة نتاج هنري كوربان وما كتب عنه^(١) أن ثمة حاجة إلى دراسة الشيرازي ومبادئه فلسفته العامة، وتعيين موقعه من الفلسفة الإسلامية ودوره في تجديدها، خاصة

Henry Corbin: Avicenne et le recit visionnaire, Bibliotheque iranienne, Tehran, Maisonneuve (١) Histoire de la philosophie islamique, Ed. Gallimard, Collection Folio, Paris, 1990. Iran et la philosophie, Fayard, Paris, 1990.

En islam iranien - Aspect spirituel et philosophique, 4 volumes, Ed. Gallimard, Paris, 1971.
La philosophie iranienne islamique au XVIIe et XVIIIe siecles, Ed. Buchet Chastel, Paris, 1981.

(La place de Molla Sadra dans la philosophie iranienne), Studia Islamica, vol. XVIII.
Le livre de la sagesse orientale, traduction et notes par Henry Corbin, établies et introduites par Christian Jambet, Ed. Verdier, Paris, 1986.

L'imagination créatrice dans le soufisme d'Ibn Arabi, 2e édition, Flammarion, Paris, 1977.
Corps spirituel et terre céleste, Ed. Buchet/Chastel, Paris, 1979.
Muntakhabay iz athar hukamy illahi Iran (Antologie des philosophes iraniens), texte, persans et arabes choisis et présentés par S.J.Ashtiyani, introduction analytique par H. Corbin, Bibliotheque iranienne, Tehran, Paris, Adrien - Maisonneuve, 1973.
Opera Netaphysica et Nystica, volume 1, édition avec introduction Henry Corbin, Istanbul, 1945.

فيما تبرز في اللغات الأوروبية بحوث جديرة بالتنويم وذلك قبل بحوث هنري كوربان وهي التي قدمها كل من M.Horten^(١) الذي نشر كتابين عن ملا صدرا و E.G Browne^(٢) Literary history of Persia والجزء الرابع من كتاب Gobinean^(٣) الذي يذكر فيه علماء وفلاسفة مختلفين من العصر الصفوی وكذلك كتاب محمد إقبال Developement of Metaphysics of Persia والذي ترجم إلى اللغة الفرنسية، كما نلفت النظر أن الأطروحة الوحيدة عنه في جامعة السوربون قبل أطروحتنا تعود إلى عام ١٩٥٩ وصاحبها Moussa Esphehani وعنوانها: Molla Sadra et son apport philosophique^(٤) وهي تقع في تسعين صفحة، ويبدو أن الباحث قد اعتمد على كتاب الشواهد الربوية كمرجع رئيسي لبحثه.

وتبدو البحوث التي حققها البروفيسور هنري كوربان عن الفلسفة الإسلامية وخاصة مدرسة أصفهان^(٥)، ومرحلة ازدهار الفلسفة في إيران إبان العصر الصفوی من الدراسات الجديرة بالتنويم. ويعتبر كوربان من أعمق الباحثين في قضايا الفلسفة الإسلامية وتطورها، ومن أدقهم معرفة بالفكر الإيراني على اختلاف وتشعب موضوعاته، وساعدته تمكنه من اللغة العربية والفارسية إضافة إلى الفرنسية لغته الأم ولغات أوروبية أخرى على سعة الإطلاع وغزاره التأليف، وكان لتعاونه مع مجموعة من الباحثين الإيرانيين والعرب مثل السيد حسين نصر والسيد جلال الدين أشتياني وعثمان يحيى، واشتغاله بتدریس الفلسفة الإسلامية في السوربون، وتسيقه مع جامعة طهران وجامعات أخرى، ما أمن له مادة البحث والتحقيق، وقد استخدنا كثيراً من بحوث كوربان، واعتبرناه مرجعاً أساسياً فتح باباً واسعاً للثقافة الشرقية، وكشف كنوزاً غنية بالانتاج الديني، والفلسفی، والتصوف الأصيل، ليكون صلة وصل روحية بين الشرق والغرب، لما كان لأبحاثه من سبق الكشف عن

M. Horten.^(١)

E.G. Browne (Literary History of persia) Cambridge 1923.^(٢)

(٣) ترجمت الأطروحة إلى اللغة العربية وصدرت في كتاب عنوانه: الجديد في فلسفة صدر الدين - الدار العربية - بغداد، ١٩٧٨.^(٤)

Die Gottesbeweise bei shirazi ein Beitrag zur Geschichte der Philosophie und (Les preuves de dieu par shirazi une contribution à l'histoire de la philosophie et de la théologie dans l'islam)^(٥)

Bonn. 1921.

الشيعة عن مذهبهم الفقهي، الأمر الذي حصر الاهتمام بفلسفته في الأوساط الشيعية، فندرت الدراسات عنه باللغة العربية، عند أهل السنة وهو الذي كتب بالعربية كافة مؤلفاته ما عدا رسالة سي أصل وبعض الأشعار.

هذه الأساليب مجتمعة ومنفردة أدت إلى ندرة الدراسات حول صدر الدين الشيرازي وفلسفته، من جهة، ومن جهة أخرى تميزت الدراسات التي تناولته بما يلي:

- استمرار الاهتمام بدراسة فلسفته في المدارس الدينية الشيعية في كل من العراق وايران والهند، وهذا النوع من الدراسة (الحوزوية) يقوم على شرح المتون الفلسفية ووضع التعليقات عليها، وتتعدد الشروح والتعليقات، بتنوع الأساتذة والطلاب، حتى يكاد يضيع النص الأصلي في غمرة هذا الكم المترافق من الأبحاث. غالباً ما ينقل المترجمون له، على طريقة علم الرجال، أحدهما عن الآخر، فتتأتي الدراسات متشابهة إلى حد بعيد من هذه الناحية، وقد عدنا في موضع حياة الشيرازي أسماء ومؤلفات المترجمين له في كتب التاريخ والرجال، وفي بعضها لا يتجاوز الحديث عنه بضعة أسطر.

- الدراسات الحديثة عنه في المؤلفات العربية والفارسية والأوروبية وفيها يتفق دارسو الشيرازي حول جوانب معينة من فلسفته كما اختلفوا حول أخرى، وتفرد بعضهم بالإشارة إلى آراء ينسب لفلاسیوف فضل ابتكارها، وتبرز في اللغة العربية أطروحة أبو عبد الله الزنجاني^(٦) ومؤلفات جعفر آل ياسين^(٧) وهادي العلوي^(٨)، وفي الفارسية مؤلفات جلال الدين أشتياني^(٩) وجود مصلح^(١٠) وعبد المحسن دینی^(١١) وجعفر سبھانی^(١٢)، وذلك قبل دراسات السيد محمد حسين الطباطبائي والشهید مرتضی مطہری والسيد حسين نصر،

(١) أبو عبد الله الزنجاني: الفلاسیوف الفارسی الكبير - نشرت في مجلة المجتمع العلمي السوري، (مجمع اللغة العربية حالياً) عام ١٩٢٩ وصدرت في كتاب مستقل عن Press - Mufid دمشق عام ١٩٣٦.

(٢) د. جعفر آل ياسين - صدر الدين الشيرازي مجدد الفلسفة الإسلامية، بغداد ١٩٥٥ - ١٩٧٨ . والفلاسیوف الشیرازی - عویادات، بیروت.

(٣) هادي العلوي - نظرية الحركة الجوهرية عند الشيرازي - دار الطليعة - بیروت، ١٩٨٣.

(٤) شرح حال وآراء فلسفی ملا صدرا - نهفـت زنان مسلمـان - طهرـان ١٣٤٠ هـجري شمسـی . نـظـرة في الفلـسـفة والـعـرـفـان - خـراسـان - مشـهـد، ١٢٢٣ هـجري شـمـسـی .

(٥) جواد مصلح: الفلسفة العالية والحكمة عند صدر المتألهين - طهران ١٣٣٦ هـجري شـمـسـی .

(٦) عبد المحسن مشکوہ دینی.

(٧) سید جعفر سبھانی: مصطلحات فلسفی صدر الدين الشيرازي - نهفـت زنان مسلمـان - طهرـان - دون تاريخ.

خزائن وأسرار كانت مودوعة في صدور العلماء، وأوراق الكتب المخطوطة والمبغثرة في خزائن المكتبات الخاصة والعامة. ومع ذلك، فإن أبحاث كوربان حول صدر الدين الشيرازي، على أهميتها كانت بالنسبة لنا أبحاثاً أساسية قبل النقد العلمي، وتستحق النقاش العادل. وفضل كوربان مضاعف، لأنه آثار مسائل فلسفية كانت لا تزال مؤجلة حتى كشفت عنها أبحاثه القيمة... وبعد، إذا ما عرف الداء أمكن وصف الدواء. لذلك فقد اتضحت الهدف من البحث أمامنا كما رسمت طريقته على ضوء ما تقدم وعليه عقدنا العزم على دراسة الشيرازي وشرح فلسفته الإلهية وآرائه في الله والعالم والنفس، لإثبات أن ثمة فلسفة إسلامية متواصلة النشاط في حلقات دورات مكتملة، وأن الشيرازي يمثل قمة في هذه الدورات الفلسفية، وهو من الفلاسفة القلائل الذين أخذوا على غيرهم الاشتغال بغير الفلسفة الأولى (والتي تضم الإلهيات وفروعها ومقدماتها الضرورية)، وإذا تحققت دراسته أمكن الدفاع عن وجود فلسفة إسلامية ببرهان جديد، كما ازداد اليقين بضرورة الفلسفة ودورها في استكمال السعادة الروحية للإنسان.

استفاد ملا صدرا في فلسفته من المصادر الفلسفية الإسلامية كافة، وكذلك من الفلسفة اليونانية. لكن دراسة متأنية و شاملة، تقوم على تأويل فلسفة ملا صدرا يمكنها التأكيد أن هذه الفلسفة قد تجاوزت الحكمة المشائية الأرسطوطاليسيّة وامتدادها عند المشائين المسلمين من الفارابي إلى ابن سينا. هذا من ناحية أخرى، تمكنت فلسفة ملا صدرا من تجاوز حكمة الإشراق والمدرسة الأفلاطونية الجديدة من السهروردي إلى محبي الدين ابن عربي. لقد تمكّن ملا صدرا من إقامة فلسفته الخاصة مطلقاً عليها اسم الحكمة المتعالية.

وعليه، فإن دراسة الشيرازي يجب أن تتناول بالتفصيل دراسة الفلسفة في عصره، وعلاقتها بالمدارس الفلسفية السابقة له، وخاصة بكل من المشائية وفلسفه ابن سينا والإشراقية وفلسفه السهروردي، لبيان العلاقة بين الشيرازي وهاتين المدرستين، والانتهاء إلى نتيجة حاسمة وحكم فاصل فيها. بالإضافة إلى دراسة حقيقة ما يمثله الشيرازي بالنسبة للعصر الصفوی، أو للفلسفة الإسلامية في ایران، وهل كان صورة لعصره، أم أنه تجاوز بفلسفته المتعالية ما يمكن وصفه بالإنتاج الثقافي والفلسفي لهذا العصر وللدولة الصفویة؟ وهذه صفة وسمة كل فلسفه مبدع.

تساعدنا دراسة الشيرازي على إصدار حكم جديد فيما يتعلق بالمرحلة الممتدة من القرن السادس هجري إلى القرن الحادي عشر، وهي المرحلة التي أعقبت ابن رشد، ويكتتفها بعض الغموض، ويدور كثير من الخلاف حول طبيعة إنتاجها الفلسفى، ومستواه، وحتى تعطى دراسة، من هذا النوع ثمارها الطيبة، عليها أن تكون أمينة لعرض آراء الفيلسوف بالاستاد إلى جميع مؤلفاته، وليس إلى بعضها أو إلى ما اشتهر منها، حيث تبرر في هذه الناحية مسألتان:

الأولى: إن الذين سبقونا إلى دراسة فلسفة صدر الدين غالباً ما ركزوا أبحاثهم على بعض مؤلفاته أو المشهور منها، مرة يكون «الأسفار الأربع» كما يفعل حسين نصر وجعفر ياسين والزنجاني وسواهم، ومرة أخرى يكون «الأسفار والمشاعر» مع استعانة بمؤلفات أخرى حسب الحاجة كما فعل هنري كوربان، ومرات نادرة كتاب «العرشية»، و«شواهد الربوبية»، كما نوهنا في مرجع الأطروحة الأولى التي أعدها عنها يوسف الأصفهاني في السوربون عام ١٩٥٩. وإذا ما قام بعض المهتمين بدراسة الفيلسوف بترجمة واحد من كتبه وقدّم له، فإنه يستند إلى ما جاء في هذا الكتاب، ويحمل سواه.

لقد ساعد هؤلاء الباحثين في منهجهم أن الشيرازي يتناول الموضوع نفسه في مؤلفات عدّة، ويظهر للوهلة الأولى أن الرجل يقع في التكرار، لكن دراسة متأنية لمؤلفاته، تبعد عنه هذه التهمة، باعتبار أنه قد شغل نفسه بالنظر في الفلسفة الأولى دون سواها، وعليه، تراه يتناول موضوعاتها بمناهج مختلفة ومقاربات متعددة، مرة على طريقة أهل النظر والبرهان، ومرة على طريقة أهل الذوق والعرفان، ناهيك بما بينهما من طرق المتكلمين ومناهج المفسرين. وإذا ما تعددت الطرق التي يقارب بها الشيرازي مباحثه، فإن النتائج التي يصل إليها تبقى واحدة، لأن الفيلسوف إنما يبني نتائجه على مقدمات وأصول ثابتة. وقد حمل تعدد مقارباته إلى تسمية كتبه بمشاريع فلسفية، وعرفانية، وكلامية، وقرآنية (تفسيرية)، وغير ذلك.

في الواقع، لم يكن لنا من سلف في دراستنا هذه، لسبب يعود إلى اختيارنا دراسة فلسفة الشيرازي العامة، وذلك من خلال كتبه كافة. لأن جميع الدراسات التي صدرت عنه في كتب تاريخ الفلسفة أو في كتب مستقلة، لم تكن كافية لشرح آرائه بشكل تفصيلي وأكاديمي. بل عمدت إلى دراسة المبادئ العامة كفلسفة الوجود والحركة الجوهرية، واتحاد

والمعنى «شروح على أصول الكافي»، إلى جانب تفسيره لبعض الآيات من القرآن الكريم والذي لم يستكمله أيضاً.

لم تكن الرحلة في معرفة الشيرازي سهلة كانت سفراً في تاريخ الفلسفة الإسلامية، يقطع فيه المسافر محطات القول على تنوع موضوعاته، من الديني، إلى التاريخي، إلى الفلسفي، ويشهد في سفره هذا تأوه الخطاب في حركة الروح داخل التاريخ الإسلامي للفكر، إجابات جديدة على أسئلة مستعادة، نفذ حكيم شيراز إلى غاية مقاصدها، واستطاع أن يكون حركة تجمع بدايات الفكر إلى كمالاته كأنما إنتاجه صورة مفاضة عن فاسفته في جمعها بين المبدأ والمعاد.

لم يكن عندنا من مرشد في دراستنا للشيرازي سوى انتاج الفيلسوف نفسه، وكان لزاماً علينا أن نعرف الشجرة من ثمارها، وأذكر أن الأمر كان واضحاً في قسم الفلسفة في جامعة السوربون الأولى Paris-1. لقد أبلغني الأب يواكيم مبارك مساعد البروفسور Pierre thillet حينما ناقشت معه موضوع الأطروحة، أنه لا مساعد لي في عملي، من داخل الجامعة، مضيئاً أمامي صعوبات الطريق، وقد تحسست هذه المسؤولية، في نظرات الأب مبارك وحديثه الودود، وإرشاداته الصريحة، لكنني كنت أقف على أسباب لا يمكن شرحها في دراسة حكيم شيراز، ولأن هذا الأمر مولد، لعزيمة مضافة، فإني قبلت السفر بكامل إرادتي، متحملاً مسؤوليات ما في هذه الطريق من مخاطر، لكنني وجدت بعدها من قسم الفلسفة في السوربون كل مساعدة، وإرشاد ضروريين، وهذا الأمر يقف وراء رغبتي الدائمة في تعليم الشيرازي، بل ربما وراء أسلوب دراسته، حيث يصبح بالامكان تدريسه في الجامعات دون أن نضع طلابنا في الموقف الصعب الذي وجدت نفسي حالياً، أي يمكن أن يواجه الطلاب من الراغبين في الاشتغال على الشيرازي، نصائح من نوع ما سمعته، وكل سيدتحمل من بين هؤلاء مسؤولية السفر وحيداً، في طريق صعبة، ونجد في ذلك احتمالين: إما الإقلاع عن السفر، أو سلوك الطريق القصيرة والسهلة، الأمر الذي نجده في كثير من الدراسات الجاهزة في اللغة العربية، وبعض الدراسات في اللغة الفارسية، والتي تتناول فلسفة حكيم شيراز، بطريقة تقليدية لا تضيف إلى الدراسات السابقة شيئاً. أو تلك المحاولات المتعاقبة لتدريسه، كواحد من أتباع ابن سينا أو السهروردي أو كفيفي

أضاف إلى الفلسفة بعد ابن رشد مشروعية القيامة التي تشبه إلى درجة بعيدة، الولادة

العقل بالمعقول، كما اقتصر بعضها على مقالات متفرقة حول آرائه ومكانته الفلسفية، وكان أهمها في مناسبة إصدار كتاب في ذكره المئوية الرابعة، جمع عدة دراسات متفرقة ساهمت في إضاءة نواحي معينة من آرائه الفلسفية^(١).

وعليه، ثمة نقص في تحقيق دراسة عن فلسفة الشيرازي العامة وذلك بالاعتماد على كافة كتبه، وهذا ما قمنا به، وما جعلناه الهدف الأساسي لأطروحتنا عنه. وقد أمضيت سبع سنوات في الدراسة والتحقيق. وكان هذا العمل مضنياً وممتعاً في آن. فيه عناء البحث ومتاعته، خاصة وأن آثار الشيرازي تربو على ٤٢ بين مؤلف وكتاب ورسالة تتناول نواحي الفلسفة والكلام والعرفان، إلى جانب مسائل التفسير وعلم الحديث. ولم يتسع لهذه المؤلفات تحقيق علمي جيد، فيما كثرت عليها الشروح والتعليقات بالإضافة إلى ضرورة تبيان تطوره الفكري من خلال مؤلفاته، وهو الأمر الذي يصعب تحقيقه وتاريخ مؤلفاته، علماً أن التغيرات في آرائه الفلسفية نادرة، وقد أشار إليها عند حدوثها في مواضعها، وساعده على ذلك أنه بدأ التأليف في مرحلة متقدمة من نضوجه الفكري، وهي المرحلة التي تلت عزالته في (كهك) بعد اكتمال دراسته، ورياضته الروحية. لقد ركَّز جميع دارسيه على كتاب «الأسفار» واعتبروه الموسوعة الفلسفية الأساسية له، يقع من فلسفته موقع «الشفاء» من فلسفة ابن سينا، فيما ذهب آخرون إلى اعتبار «شواهد الريوبية» كتابه الفلسفي الذي ضمنه آراءه الخاصة، فيما يظهر الأسفار عند بعضهم ككتاب في تاريخ الفلسفة^(٢). وهذا أمر عجيب يظهر النقص المتعلق بمعرفة هذا الفيلسوف وتطوره الفكري، والاطلاع الصادق على مؤلفاته وما تحتويه من آراء فلسفية متجدة. وأن تعدد مؤلفاته كانت تقوم على قاعدة اعتماده بموضوعات الفلسفة الأولى، واجتهاه بتناولها بمقاربات ومناهج متعددة، وتحصيشه مباحث ورسائل خاصة لشرح آرائه الفلسفية لتأتي كمحصل لما نجده مبيثوتاً في ثانياً مؤلفاته العامة والمعقدة. كما في رسالته في «حدود العالم» ورسالته في «الحشر»، و«زاد المسافر»، و«أوجوبة المسائل».. إلى جانب شروطه على كل من الشفاء لإبن سينا، وحكمة الإشراق للسهروردي، ومشروعه الفلسفي الهام والذي لم يستطع إكماله